فلسفة ليبنتز

Gottfried Wilhelm Leibniz

١٦٤٦ — ١٧١٦

للأستاذ زكي نجيب محمود

١ — نظرية ذرات القوة ٢ — التآلف الازلي

٣ — نظرية المعرفة ٤ — الله والعالم

(تتمة)

٢ ـ التآلف الازلي Pre-established Harmony

ولكن إذا كانت هذه الذرات القوية التي يتألف منها الكون بأسره عبارة عن عوالم صغيرة مستقلة ، لا يؤثر بعضها في بعض ، فماذا عسى أن تكون الرابطة بينها ؟ وبماذا نعلل هذا النظام الدقيق الذي يشتمل الوجود ؟ يجيب ليبنتز على ذلك بأنه قانون التآلف الأزلي . فقد ركبت تلك الذرات بادىء ذي بدء بحيث تسير الواحدة موازية للاخرى ، وعلى الرغم من تفرقها وانفصالها ، فهي تعمل جميعاً في توافق دقيق ، حتى لتبدو كأن بعضها يعتمد على بعض . أليست تسير طوع ارادة إلهية عليا ؟ إذن فهي تسير في نظام واتساق لا تناقض فيهما ولا اضطراب . يقول ليبنتز : « إن هذا التوفيق بين استقلال الذرات واتساقها في نظام واحد أشبه شيء بجوقة من رجال الموسيقى ، كل يقوم بدوره مستقلا ، وقد أجلسوا بحيث لا يرى بعضهم بعضا بل ولا يسمعه ، ومع ذلك فهم يسيرون في تناغم مستقيم ، ما دام كل منهم يعزف وفق المذكرة الموسيقية ، فاذا ما سمعهم مستمع في وقت واحد ، لحظ في عزفهم تآلفا عجيبا »

وبهذه النظرية نفسها قد عالج ليبنتز العلاقة بين العقل والمادة ، أي بين الروح والجسد ، فالروح يتبع قوانينه الخاصة والجسد كذلك يتبع ماله من قوانين دون أن يؤثر واحد في سير الآخر ، فهما يتلاقيان في تناسق بلغ من الدقة حدا بعيدا يستحيل معه الخطأ ، فكل خلجة عقلية يحاوبها وضع من الجسد كما لو كانت العلاقة بينهما علاقة العلة بالمعلول . ولا يمكن تعليل هذا الاتفاق المستمر بين العقل والجسم الا باحدى ثلاث ، يسوقها ليبنتز تشبيهه المشهور : فهما كساعتين تسيران معا في دقة تامة ، ولا يكون ذلك إلا :

(١) أن يكون للساعتين آلة واحدة تديرهما معا في آن واحد

(٢) أو يكون ثمة شخص يعادل بينهما من آن الى آن بحيث يوفق بين زمنيهما ، (٣) أو قد تكون الساعتان صنعتا في دقة تامة يستحيل معها الخطأ .

فأما الغرض الأول فمردود لأن العقل والجسم لا يؤثر فيهما مؤثر بعينه في وقت واحد . وأما الغرض الثاني فمردود كذلك لأنه يفرض تدخلا مستمرا في علاقة العقل والجسم . وأما ثالث الفروض فهو ما يراه ليبنتز جديرا بعظمة الخالق وكامل قدرته . أي أن كل شطر يسير في طريقه الخاصة . فلا يكون بين الشطرين اختلال أو اضطراب ، وهذا التآلف موجود منذ الأزل ، وهو ما يسميه بنظرية التآلف الأزلي

ولكن إذا كانت كل ذرة مغلقة في حدودها الخاصة ، لا تستطيع أن تطل على العالم الخارجي كما يستحيل أن ينفذ إلى داخلها شيء من العالم الخارجي ، فكيف نعلل ادراكنا لله ، بل ادراكنا لكل ما يحيط بنا من أشياء ؟ أليس الادراك ضربا من ضروب الاتصال أو هو كل الاتصال ؟ كيف يستطيع كائن أن يصل إلى معرفة الله — والعالم اذا لم يكن في مقدوره أن يحطم حدود فرديته ؟ هذا تناقض ولا ريب ، وأغلب الظن أن ليبنتز قد لحظه عند حديثه عن علاقة الانسان بالله جل وعلا ، فأنقذ الموقف بأن زعم أن الروح الانساني لا يقف عند حد تصوير الكون وتمثيله في شخصه ، كما هي الحال مع سائر الكائنات ، ولكن له فوق ذلك مقدرة على إدراك الله وتقليده ، ثم معرفة أجزاء العالم عن طريقه ، لأنه يعتقد أن الله جل شأنه هو الذرة السامية الكاملة وهي أساس الذرات جميعاً ، منها تنبثق ، كما ترسل الشمس ضوءها ، فاذا ما أرادت ذرة أن تتصل بأخرى ، كان لزاما عليها أن تتصل أولا بذلك الاساس أو قل (السنترال) لأنه بمثابة المركز الذي تتفرع عنه الطرق جميعا

٣ ـ نظرية المعرفة

من أين جاءت الى الانسان هذه المعلومات التي تملأ شعاب ذهنه ؟ أما (لوك) فرأيه في ذلك معروف . وهو أن كل معلوماتنا انما جاءت عن طريق الحواس فأثرت في صفحة الذهن التي برزت الى هذا العالم نقية بيضاء لا تشوبها شائبة ، وأما (ديكارت) فيزعم أن الطفل يولد مزودا ببعض الآراء الفطرية التي لا يمكن أن يحصلها بالتجربة ، طرفان متناقضان من الرأي ، كتب لهما أن ينتهيا الى ليبنتز الذي لا يعجز عن جمع المتناقضات في وحدة متسعة ! ألم يوفق بين مذهبي الفردية والكونية ، وأخرج منهما فلسفة الذرات القوية ؟ وها هو ذا كما عهدناه يوفق بين لوك وديكارت في نظرية تحصيل المعرفة ! فهو من ناحية ينكر على لوك رأيه في انعدام الآراء

الفطرية . ويرى هو أن للعقل أساسا من المعلومات يستحيل أن يحصل بدونه شيئا . فيولد وهو يحمل بين طياته معرفة كامنة بالقوة ولا تصل إلى درجة الشعور الا اذا ايقظتها التجارب التي تفد إليها عن طريق الحواس ، فليس من شك في أن الطفل يولد مزودا بميل الى استطلاع الحقيقة قبل أن يصادف من حياته تجربة ما . ويكفي أن يكون لديه تلك القوة العقلية وحدها ليجوز لنا القول بأن له معرفة فطرية ، واذن فيجب أن نكمل نظرية لوك التي يلخصها في هذه العبارة . « ليس ثمة في العقل من أثر الا ماتبعثه الحواس » بأن نضيف اليها هذا التعديل : « اللهم الا العقل نفسه » !!

كذلك ينقض ليبنتز رأي ديكارت في الآراء الفطرية ، فلا يذهب معه في أن المعرفة التي تولد مع الطفل تكون عند الولادة محددة واضحة . إنما يعتقد ليبنتز ان تلك المعرفة تكون بادىء الامر سابحة في اللاشعور ، وتظل غامضة مهوشة حتى تدركها التجربة فتوقظها من مكامنها وتزيل ماينشاها من غموض بما تنشره على معالمها من ضوء ، فحياة العقل عبارة عن تقدم مطرد مستمر من أدراك مهوش مضطرب الى أدراك دقيق محدود . شأنه في ذلك شأن كل ذرة في الكون ، حياتها انتقال من الغموض الى الوضوح في الادراك

من ذلك نرى أنه رافق ديكارت على وجود الآراء الفطرية ، بل لم يرضه أن يقف عند الحد الذي وقف عنده ديكارت . من أن بعض الآراء فقط تولد مع الطفل وبعضها الآخر تحصله الحواس فادعى هو أنها جميعا تولد فطرية ولا يستحدث منها في الحياة شيء كما وافق لوك على أن التجارب التي تنفذ الى العقل عن طريق الحواس لها كل الأثر في تكوين المعرفة ، والفرق بينهما إن ليبنتز لا يرى أن هذه المعرفة قد استحدثت بل انتقلت من وجود بالقوة الى وجود بالفعل ، أو نقل انتقلت من حالة الخمود الى اليقظة والنشاط ، وهكذا استطاع ليبنتز أن يقرب وجهتي النظر الى حد الاندماج

٤ ـ الله والعالم

كان ليبنتز مؤمنا شديد الايمان ، يصدر عن عقيدة سليمة ودين قويم ، فهو يرى لزاما عليه أن يرد بالحجة ماتتطلق به بعض الألسنة من اتهام العالم بالشر والنقص ، وأن يثبت للناس أن هذه الدنيا التي نعيش فيها هي أكمل مايستطاع خلقه من الدنى . أليس الله جل شأنه علة وجود الأشياء جميعا ؟ اذن فلابد أن يكون قويا الى أبعد حدود القوة ، كاملا الى أقصى مراتب الكمال ، حكيما الى أعمق أغوار الحكمة . خيرا الى أوسع آماد الخير . صور لنفسك هذه الحكمة المطلقة قد تأثرت مع ذلك الخير الأسمى في خلق العالم ، ثم حدثني كيف يكون ؟ أليس من الطبيعي المحقق أن يجيء على أحسن ماتجيء العوالم ؟ هذا حق لاريب فيه . لأن الله تعالى يصدر عن منطق مستقيم يتفق مع مثله من كمال . ولا يسع ذلك المنطق الكامل الا أن ينتج عالما أقرب مايكون الى الكمال « لأنه اذا أخرج عالما دون مايستطاع اخراجه ، كان في عمله مايمكن تهذيبه واصلاحه »

هذا الايمان العميق لم يصادف من فولتير الا سخرية مرة ! فيرد على ليبنتز بقوله إن تجربته في الحياة علمته أن هذا العالم ـ على نقيض ماوصف ـ أسوأ مايمكن خلقه من العوالم . ولو كان فيه ذرة من كمال لاتحى من وجهه هذا البؤس الذي يزهق ألوف الألوف من النفوس الكسيرة . وقد هاج هذا القول من فولتير شابا مؤمنا الى درجة الحماسة فتصدى لمهاجمته في الصحف هجوما عنيفا . فلم يكن من الساخر العظيم الا أن رد عليه في رفق هادىء بقوله : « يسرني أن أعلم أنك أصدرت رسالة تهاجمني فيها . فقد أوليتني بذلك شرفا عظيما . ولكن ألا تستطيع ياسيدي أن تحدثني عما يدفع آلاف البشر لجد حلوقهم في هذا العالم الذي تصفونه بأنه خير مايستطاع خلقه . وانى لك من الشاكرين »

كذلك تصدى هجل لنقد ليبنتز في رأيه هذا عن العالم ، واحتج بأنه قد تركه قضية بغير تدليل . فلنسلم معه جدلا بأن هذه الدنيا خير مايمكن خلقه . أفيكون هذا دليلا على خيرها وصلاحها ؟ اذا أنت أرسلت خادمك الى السوق ليبتاع لك شيئا ! فجاءك به الخادم سيئا كريها ثم أقنعك أنه خير مايباع في السوق . أفتحكم على هذا الشيء بالجودة لأنه كذلك ؟ كلا ولاريب ـ فلا يمنع سوءه وشره ألا يكون هناك أحسن منه ، كذلك قل في العالم . قل ماشئت من أنه خير مايمكن وجوده . ولكن هذا لايبرئه من النقص والشر

وكأنما ليبنتز قد لحظ هذا الضعف فيما يقول فاعترف أن في العالم شرا كثيرا ، ولكنه لا يرى ذلك مناقضا لفطرته ، بل يتخذ هذا الشر نفسه دليلا على صحتها . فلولا ماتحوي الحياة من بؤس وألم . لما كانت الدنيا خير مايستطاع خلقه ، لأنهما كثيرا ما يكونان سبيلا الى الخير وسببا في جوده ! « المرارة القليلة كثيرا ماتكون ألذ مذاقا من السكر الحلو ! » . ثم يسير ليبنتز بعد ذلك في البحث عن أصل الشر في العالم . فيقرر أن علة وجوده هي هذا الجانب المادي . فقد ذكرنا فيما سبق أن لكل ذرة في الوجود جانبا فعالا ، والى جواره جانب